دمعة الروح

« على المغرد الصامت »

« كان لي كنار صغير أحببته بكل »
« ما في فؤادي من الحب . دنوت من »
« قفصه في صباح ذات يوم فوجدته ميتاً »
« فبكيته وندبته » — مي —

ما أسرع ما تمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر !

يمرّ النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتمزق بوطئه اللطيف اثوابها وتنتثر وريقاتها . هكذا يكفي لاستمطار العبرات ان يلامس الألم بأطراف بنانه أثير الروح الموحدة . وما الدموع الهاطلة من الاجفان الاّ حسرات قديمة كامنة في طيات الفؤاد ، أوقدت شعلتها يد سوداء — يد الكذب والافتراء ، وقد زاد الانفراد والتأمل في اشتعالها

من الرجال من يكتفون بالوجاهة والمجد والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة الا بالزينة والغنى وارتفاع القدر

اما انا فلا هذه العطايا تغرّني ، ولا تلك المواهب تستهويني . شيء واحد جميل في نظري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم اكبر من القلب . شيء واحد ينبه اعجابي ، وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا — هو زهرة نادرة المثال غرستها يد الوفاء في حدائق الاخلاص الصافي ، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف السامية العذبة تسقيها

ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجروح في ثنياته !!

* * *

طائر صغير نسجت اشعة الشمس ذهب جناحيه ، وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة في عينيه . ثم سطت عليه يد الانسان فضيّقت دائرة فضائه وسجنته في قفص كان بيته في حياته ونعشه في مماته

طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً . غرّد لكآبتي فاطربها . ناجى وحشتي فآنسها . جاور روحي فآخاها . غنّى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فملأها ألحاناً

امتزج ذكره في دقائق حياتي فأصبح عندي بمنزلة صديق لاتصلني به اللغة ولا يقربني منه التفاهم الروحي ؛ بل يعزّه اليّ حضوره الدائم وان لم يبالِ هو بحضوري ، وصوته الرخيم وان لم يغرد الاّ لأن التغريد من طبعه ، وسروره الذي لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء واقتناعه بما قدّر له من النور والهواء

عندما كانت تبكيني الآلام كنت أريه منديلي مبللاً بالدموع فيعرض عني . ان الدموع تعقب ظلمة الاحزان كما يعقب الندى ظلام الليل ، وروح الطيور نور مغرّد فكيف يفهم النور الظلام ؟

كنت أنظر اليهِ مشيرة بأصبعي الى الاثير البعيد لعلي أرى منهُ زفرة تنبئني عن لوعة في قلبه غير انهُ كان يقمز على قضبان عشه الصغير غير مبالٍ بي كأنهُ يقول : « النور لا ينظر الى الشمس والقلب لا يحدق بالروح لان كليهما واحد . أنا لا أنظر الى الأثير لأني نقطة منهُ . اني أسكنهُ وان بعدت عنهُ ، كالشاعر الذي يظل جوهر نفسه سابحاً في سماء الجمال وان خاله الناس جالساً بينهم مصغياً الى أحاديثهم »

واذ كنت آتيهِ بالأزهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها أرض القفص لعلي أرضيه كان يدوسها باهمال متابعاً تغريده ، كأنهُ فيلسوف لا يكترث للصغائر وان كانت جميلة المظاهر ، ولا يعمل في حياته الا بما يشغل أفكاره وينبه قوى البحث والتنقيب في فؤاده

في الصباح كنت أفتح عيني فيستقبلني بالغناء وتسيل موسيقى ألحانه على قلبي فتذيبه وتسكره في آن واحد

كنت أجلس للدرس والتحبير فتشمئزّ نفسي أحياناً من عبوسة الكتب ، ويثقل قلمي في يدي كأنهُ صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد وتأتي جماعة طير من الخارج وتضم تغريدها الى تغريده كما تمتزج الالحان في طيات الامواج . فتبتسم الافكار على صفحات الكتب امام ناظري ، ويترنح اليراع بين أناملي ، ويتمايل تمايل الصفصاف بقرب الغدير ، وتنجلي الغيوم عن فؤادي وتطرب روحي

وفي المساء كان يصمت الكنار اجلالاً لقداسة الظلام فيخفي رأسه بين جناحيه ويجمد جمود المفكّر . اذ ذاك تأتي بنات خيالي محلولة الشعر وورد الابتسام مزهر على شفتيها ، ومصباح الشعر متقد في يمينها . فتعقد حلقة وتدور راقصة حول أحلامي ، وتغني أناشيد على ألحان سرية كأعماق اللجج ، أناشيد غريبة لم يسمعها الا خيال روحي المتموج بين تلك العذارى الراقصات ، ولم أفهمها الا بحاسةٍ سادسة تولد في قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة . بينا ملوك الجوزاء تطل من أعالي علاها ناظرة اليّ من نافذتي ، والكنار يرقبني بعينيه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين

* * *

والآن انظر الى القفص :

لقد صمت الطائر المغرد ، والشعاع المحي تجمد ، فلا ترى في القفص الاّ قليلاً من الشمس الماثتة :

مات الصغير المغرد ، مات صغير حشاشتي !

مات قبل غروب الشمس وقبل انقضاء الربيع ، ولا يبقى في نفسي الاّ أثر من ذلك اللحن البديع !

شعاع ذهبي اطل حيناً واختفى في كبد الآفاق
ابتسامة نور أشرقت وما لبثت أن تبددت
نور فكر ضاء ثم اضمحل في لجج العدم
وردة أثير تنفست فعطرت واسكرت ثم ذبلت
نغمة حب تموجت ساعة ثم تلاشت في هاوية السكينة

صديق صغير غرد فاطربني وسكن بجوار روحي فآنسني ولما آلم قلبي العالم بدناءته وكذبه غنى طائري فانساني قباحة البشر وغشّهم وجعلني أفكر في كل حسن بهي

هذه قيثارتي فقدت أحد أوتارها فناحت بلابل أنغامها

فما أتعس القلوب الشديدة التأثر ! وما أكثر مرارة الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرة !!